ناصر ابراهيم طرح اوليا جلبي في كتابه سياحتنامة مصر" إشكالية الغزو العثماني لمصر وشحذ ذهنه لمعالجة هذه القضية الشائكة رغم إدراكه لصعوبة قبول فكرة غزو دولة إسلامية لدولة إسلامية أخرى ـ كما ذكرنا في المقالة السابقة ـ كما وهو ما جعل كتابه يتجاوز وظيفة الوصف إلى مناقشة القضايا السياسية، وهنا جانب حقيقة سير الوقائع التاريخية، ليستبدل بها قصص وروى احلام منسوجة من الخيال الشعبي العثماني، وهذا المنهج الذي اتبعه أدى إلى إذابة الحدث التاريخي في خضم اختلاق مرويات شعبية متتالية زج بها في متون كتاب، وبداهة جاء ذلك على حساب تخفيض درجة اعتماده على وقائع التاريخ التي لا تشكل في هذه الحال سوى إطاراً يكتنز داخله سيرورة الحكي الشعبي، فتبدو هذه المرويات المتناثرة بطول المجلد وكأنها جزءاً من سياق تاريخي ودون الدخول في تفاصيل تلك المرويات تعرج على مضمونها المحوري فحسب، وبما يساعدنا على استجلاء دلالاتها في تفسير المنظور العثماني القراءة قصة فتح مصر. من أجل تبرير احتلالهم لمصر انشا العثمانيون مرويات شعبية جعلت النبي جزءاً من مكوناتها لإكسابها التأثير المطلوب منها أن السلطان سليم الأول أخذ العهد والبشارة من النبي يفتح مصر لكن اللافت للنظر هنا في هذه المرويات الشعبية المحكية أو المتخيلة أنها جعلت النبي جزءاً من مكوناتها لإكسابها الوقع التأثيري على المتلقين لها من العوام، ومن ناحية أخرى الحاجها على تأكيد فعل ومشيئة الإرادة الإلهية في نقل السلطة إلى آل عثمان يمكننا في الحقيقة تغير ثلاثة مشاهد أساسية ذات مغزى الأول منها يتعلق بـ قصة أخذ العهد والبشارة من النبي يفتح مصر"، والحكاية هنا تأخذنا مع تخفي السلطان سليم الأول حين قرر زيارة الحرمين الشريفين، قبل غزوه لمصر مباشرة، وقيامه بزيارة المسجد النبوي. ووقوفه أمام قبر الرسول باكيا منتحبا على الحال التي وصلت إليها مكة والمدينة، وأنه أخذ على نفسه عهداً وموثقاً أمام قبر الرسول، لكن بارك له فتح مصر، ليوقفن كامل أراضيها على الحرمين الشريفين وليرسلن الأموال والكساوى والعطايا، وليعملن على إعلاء شأن هذا الناموس النبوي، والثانية مثلها صوت جاءه من بعيد، بدا ذلك في القصة (الشعبية بمثابة ميثاق عهد ومباركة مقدسة للفتح". اما القصة الشعبية الثانية، فهي القصة كرتباي الفدائي " الذي حاول الانتقام من سليم الأول بالتسلل إلى القصر أم القياس" بجزيرة الليل. الذي اختاره السلطان سليم كمقر له إبان استيلائه على مصر، وتمكن البطل الشعبي (المملوكي) كرتباي" من اقتحام غرفة نوم السلطان سليم حيث أقدم على قتله ومغزى القصة يبدأ بعيد فشل الأمير المملوكي كرتباي والقبض عليه إذ يتم نسج حوار بين السلطان سليم والأمير كرتباي، وسطوت على بلادنا، واستوليت على اهلنا وعيالنا، واغتصاب الأملاك والأموال، ومنحتها الأجانب، والأدهى حرمت من صحبة ولى النعم طومانياي الملك الشجاع". وهنا يدخل النبي كجزء أساسي في سردية الحكاية الشعبية فكرتباى استئذن الحضرة النبوية في قتل سليم، لكن الرسول وهذا هو المغزى أعطى الإشارة لكرتهاى بان المولى عز وجل رضى عن آل عثمان ـ والكلام على لسان النبي ـ لقد اقتضت حكمته البالغة زوال دولة الجراكسة، وقيام دولة آل عثمان، لذلك صار سليما في حمليتي وحراستي فلا تتعرض له ولا تؤذه أبدا . ويتخذ أوليا جلبي من ثبوت فشل الفارس المملوكي كرتباي المشهور بقوته وجراءت في القتال، دليلاً على صحة حماية النبي لسليم ونجاح قيام دولة الى عثمان بإرادة الأمية بحتة. وثاني القصة الثالثة والأخيرة في شكل رؤية / حلم، رواه أحد السلاطين العثمانيين للعلماء ومشايخ الإسلام، اهتم أوليا جلبي بذكر تفاصيل هذا الحلم، والتعامل معه كرؤية حقيقية بدعوى تجلى النبي نفسه فيه كـ "قاضي يفصل بين خصومة المماليك لآل عثمان، بسبب نقلهم الأثر قدم النبي إلى إستانبول جمع الحلم / الرؤية بين سلطانين واحد مملوكي والآخر عثماني، وفى المشهد ظهر المؤيدون السلاطين القدامي في كل جانب، ومع افتعال حوار أقرب إلى المناظرة، بدأت الأفكار والتصورات ذات الطبيعة المتناقضة تظهر فوق السطح: الطرف الأول (المماليك) يتصدى بصورة غير مباشرة لفكرة الغزو وتبعاتها الدرامية، وما تسببت فيه من ترويع الآمنين، وتخريب الأوقاف وضم حصيلتها إلى مال الدولة، ومن ثم طالبوا النبي بإزالة آل عثمان عن ملك مصر، فيما يرد الطرف الثاني (آل عثمان) مدافعاً عن نفسه بأنه نشر العمران وأن خراب الأوقاف من جراء أثر الزمن وتقلب الأيام، ويتحرون تحقيق العدالة، هنالك يقضى النبي، وقد استمع إلى حجة الطرفين، برد أثر قدمه إلى جامع قايتباي، والقطع ببقاء ا ملك مصر ـ بإرادة الله ـ بين يدى آل عثمان حتى قيام أشراط الساعة الغزو كـ «مهمة مقدسة» ومن الواضح هنا أن خلق أسطورة الفتح العثماني المقدس" استندت في الأساس إلى إثارة ثنائية العدالة / الاستبداد العمران /والخراب التفسير عملية الانتقال الحاسم في السلطة، وليس فحسب في زمن العثمانيين، وإنما كذلك فيمن تداولوا حكم مصر على مدار القرون والعصور. ومن ثم فالقصدية واضحة جلية وهي نفي دخول العثمانيين لمصر الغرض سياسي أو توسعي أو حتى الممارسة الهيمنة على المشرق العربي وأنهم إنما جاءوا استجابة لـ مهمة مقدسة، كلفوا بها ولم يسعوا إليها. وبهذه الطريق، لا ينجح أوليا جلبي فحسب في تفنيد القضية المملوكية" وتفريغها من مضمونها، وإنما كذلك وهو الأهم في إضفاء الشرعية على الغزو واعتباره ضرورة شرعية" كذلك لحماية مصر من المد الشيعي الذي يصوره

lakhasly.com © تم تلخيص النص بواسطة موقع لخصلي

أوليا جنبي على أنه كان مهدداً لمصر وأهلها بعد ميل المماليك إلى التحالف السياسي مع الصفويين (الشيعة) والذي لم يتم من الناحية الواقعية، وهذا يفسر لماذا ألح على ذهنية أوليا جلبي رفض الآخر المملوكي"، ووصفه بالرافضة / الروافض الفاسدين تارة، وبالكفرة الجراكسة الملعونين تارة أخرى. ويلاحظ أن قضية شرعية الغزو" تظل تشتغل النص فعبر سياقات مختلفة، وفي مواضع متعددة من الكتاب يتعرض أوليا جلبي لهذه القضية الشائكة من جديد، وفي كل مرة تجده يقدم مبرراً إضافياً، يصرف النظر عن نسبة التزامه ومسايرته للواقع التاريخي أو بلجونه أحياناً إلى التحايل على اختلاق أحداث ما والمبالغة في تفسيرها، التي تعطى لنفسها حق التميز والحكم على الآخرين من موقع الأنا المنتصرة": فمثلاً لا تجد في مصادر تلك . تلك الفترة أي إشارة إلى اتخاذ بعض المصريين قرار الجلاء عن وطنهم إلى استانبول بسبب ممارسات مشيئة تجسد ما سماه أوليا جلبي بـ الظلم المملوكي المتواصل" أو حتى لأى أسباب أخرى، بل على النقيض من ذلك، حين تم في الحادثة الشهيرة، إلزام مجموعات كبيرة من كبار الشيوخ والعلماء، ونواب القضاة المخضرمين، وأسطوات الحرف والصناع من كل فئة ناهزت في جملتها الألف نفر)، بالتوجه قرأ إلى استانبول، أنها مثلت أبلغ مأساة مر بها المصريون على مدار تاريخهم، وكتب يقول: لم يقاس أهل مصر شدة من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة، ولا سمعت في التواريخ القديمة. ففارقت الناس أوطانها وأولادها وأهاليها، وتغربوا من بلدهم إلى بلد لم يطؤوها قط، وخالطوا أقواماً غير جنسهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وأطلق عليهم ابن إياس نفسه الأسراء المصريين ومغزاها بالغ الدلالة على ارتباط الناس ببلادها والمعروف في وقائع الدهور لأبن اياس أن كثيرين منهم ناضل من أجل العودة، ومنهم من أعياه طول المسافة ومات على قارعة الطريق، ومنهم من تمكن من العودة هرباً، وظلت هذه حالهم على مدار ست سنوات، وهو ما اعتبره الأهالي من أعظم محاسنه وعدله اختلاق حجج شرعية لاحتلال مصر علاوة إلى ذلك لا تجد ما يدعم صحة ما ذهب إليه أوليا جلبي من أن رجال الدين وعلماء المصريين استنجدوا بالسلطان سليم، وكانوا يحلونه على الإسراع إليهم لتحقيق الخلاص من حكم المماليك ولا توجد قرائن تاريخية أيضاً لما أشار إليه بأن هؤلاء العلماء أرسلوا إلى إستانبول 40 فتوى تجيز للسلطان سليم إباحة قتل حكام مصر " فالثابت في المصادر المص التاريخية أن أن العلماء العلماء والشيوخ لم يكونوا بعيدين عن المشهد على الإطلاق، وإنما كانوا في قلب تطور الأحداث التي مستهم بدرجة ملحوظة، فهم يسارعون في اصطحاب السلطان الغوري وعسكر المماليك عند خروجهم لملاقاة العثمانيين في الشام لأجل شد أزر أزر الجلد في الدفاع عن كيان الدولة / السلطنة، وحتى من بقوا منهم داخل مصر اهتم يلعب الدور نفسه في تقوية الجبهة الداخلية وتوثيق تكاتف القوى المملوكية التي هزتها الهزيمة، في سبيل جمع كلمتهم على قلب رجل واحد وموازرتهم في مواجهة القوة العثمانية الزاحفة على مصر بعيد هزيمة مرج دابق. ونقل المسألة الأبرز متمثلة في اتجاه أوليا جلبي إلى تفسير ميل المماليك إلى الصفويين من منظور ديني لا سياسي، كيما يغض الطرف عن خطورة اللحظة الفارقة في تاريخ الشرق الأوسط إبان تحقق الاجتياح العثماني المرتقب للمنطقة، وهنا يرصد نص فتوى حاول أن يدعم بها هذه النتيجة المتخيلة كي يقنع قارنه بسلامة الموقف الذي قاد العثمانيين إلى اتخاذ قرار الحرب، وذلك بالنظر إلى أنهم حماة وممثلين للإسلام السني ويشير نص هذه فتوى التي لم تستطع الوقوف على صحتها في المصادر التاريخية المعاصرة، إلى أن ولاية السلطان الغوري جارة وخلعه فرض عين إذ هو داخل بعمله هذا التحالف مع الصفويين في مذهب الرافضة (الشيعة)، فيجب نهب إقليمة وولايته و هدر دماء تابعيه، يقتلون ولا يؤسرون، ونساؤهم حرام علينا لا يتخذن جواري وإماء، ويجب الزحف اليهم ونزع البلاد منهم . وغير خاف المغزى هنا من صباغة مثل هذه الفتوى بهذا المضمون، إذ تصطنع حجة شرعية " الإسقاط الامبراطورية المملوكية وارث أملاكها في بلاد المشرق العربي وخلافاً لمسألة الفتوى دعم أوليا جلبي قصة الفتح بمرويات شعبية أخرى كانت شائعة في البلاط العثماني حول قرار السلطان سليم بالتوجه إلى مصر، ومنها رواية الكشف الصمداني" التي تحاك على غرار قصة حادثة سارية الجبل" التراثية، وتتمثل هنا في صورة نداء استغاثة من كبار العلماء، كالشيخ أبو السعود الجارحي والشيخ مرزوق الكفافي المشهورين بقامتهما العلمية،

lakhasly.com © تم تلخيص النص بواسطة موقع لخصلي